

تفسير قوله تعالى: **إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**

..... { **إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } قوله: { **إِلَّا تَنْفِرُوا** } هي "إن" الشرطية أدغمت في "لا"؛ يعني { **إِلَّا تَنْفِرُوا** }؛ إن لم تمتثلوا أمر الله وتنفروا لجهاد أعداء الله وإعلاء كلمته؛ فإن ذلك ضرره عليكم لا على الله ولا على رسوله. وهذه الآية فيها سر عظيم، يعلم به الإنسان أن كل ما يفعله إنما أثره راجع إلى نفسه، فإن كان شرا فهو يجني شرا على نفسه، وإن كان خيرا فهو يجلب الخير لنفسه { **إِنْ أَحْسَنْتُمْ أُحْسِنْتُمْ وَأِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** } . فعلى كل عاقل في دار الدنيا أن يعتبر بمعنى هذه الآية وما في معناها من الآيات، وهو أن ما يفعله الإنسان لا يجنيه إلا هو، وأن حركات الإنسان في دار الدنيا يبني بها مسكنه الذي يصير إليه، ويخلد فيه خلودا أبديا يوم القيامة. فهذه الحركات والسكنات في دار الدنيا يظن الجاهل أنها أمور لا طائل تحتها، ولا يلزم الاحتياط والنظر الدقيق فيها، وهذا من أشنع الغلط؛ لأن حركات الإنسان في دار الدنيا مقبلا ومدبرا، ذاهبا وجائيا، متصرفا هنا وهناك، كله يبني منزله ومقره النهائي، إما أن يبني بذلك غرفة من غرف الجنة يخلد فيها، أو يبني به سجنا من سجون جهنم؛ هذا هو الواقع . فعلى كل مسلم أن ينظر في أقواله وأفعاله؛ فيعلم أنه ينفع بالطيب منها نفسه، ويضر بالخبث منها نفسه؛ ليحاسب فيجتنب الخبيث ويجتذب الطيب، وهذا معنى قوله: { **إِلَّا تَنْفِرُوا** } إلا تمتثلوا أمر الله ورسوله بالنفر إلى الأعداء لجهاد أعداء الله، وإعلاء كلمة الله، ونصر دين الله - { **يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** } أنتم الذين تتالون الضر من ذلك { **يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** } . الظاهر أن هذا العذاب شامل لعذاب الدنيا وعذاب الآخرة؛ لأن التكاسل عن مقاومة الأعداء في دار الدنيا من أسباب عذاب الدنيا؛ لأنه يضعف المسلمين ويقوي أعداءهم؛ فيهينوهم في قعر بيوتهم كما هو واقع الآن؛ لأن المسلمين-أو من يتسمون باسم المسلمين- معذبون في أقطار الدنيا من جهة الكفرة يضطهدونهم وبظلمونهم ويقتلونهم، ويتحكمون في خيرات بلادهم، وهذا كله من أنواع عذاب الدنيا؛ لتعطيلهم الجهاد وإعلاء كلمة الله جل وعلا. وما ذكره غير واحد عن ابن عباس من أنه قال: إن هذه الآية نزلت في بعض قبائل العرب استنفرهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى الغزو فامتنعوا، فمنع الله عنهم المطر وأضرهم بالقحط. هذا قد يدخل في الآية في الجملة، ولا يمكن أن يكون معناها؛ لأن الله يقول: { **يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا** } . فهذا يدل على أن المراد به ليس حبس المطر، وإن كان حبس المطر من أنواع العذاب التي تسببها مخالفة الله جل وعلا؛ لأن مخالفة الله وعدم القيام بأمره ونهيه هي سبب كل البلايا، كما قال تعالى: { **وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ** } .